الفصل العاشر

واشنطن ولعبة النموذج الإسلامي

أثبتت الأحداث أن العلاقات بين الولايات المتحدة وحزب العدالة والتنمية الحاكم في تركيا ـ باعتباره نموذجًا للأحزاب الإسلامية المعتدلة من وجهة نظر واشنطن ـ ليست بسيطة، بل تنطوي على مركبات عدة، وتحمل في جوانبها تناقضات لا يمكن تجاهلها، لكن الشيء المؤكد أن الطرفين يدركان أنهما يمارسان لعبة سياسية بعيدة عن ثنائية الأبيض والأسود؛ لأن هناك حسابات عدة تحكم الطرفين، ورغم ذلك فإن واشنطن لم تغسل يديها من فكرة النموذج الإسلامي التركي، بينما النموذج نفسه لا يزال يرى العم سام حليفًا وخصمًا في آن!

الظواهر السياسية عادة ما تفسر ببداياتها، لكن التفسيرات الأعمق لا بد أن تتطرق لما قبل البدايات، وهذا هو الحال بالنسبة لحزب العدالة والتنمية الذي تم تأسيسه رسميًا يوم ٢١ أغسطس ٢٠٠١، وهو تاريخ يشير إلى عمر قصير للحزب، ورغم أن الحزب ينفي في خطابه المعلن كونه حزبا إسلاميًا، بل ويؤكد قادته ـ وعلى رأسهم رئيس الوزراء رجب طيب أردوغان ونائبه في رئاسة الحزب والحكومة وزير الخارجية عبد الله جول ـ أنهم لا يعتقدون باتساق كلمتي حزب وإسلامي بمعني أنهم ضد إقحام الدين في السياسة، غير أن ممارسات الحزب أشارت إلى أن صفة الإسلامي، ليست غائبة عنه، وقد بدت في بعض الممارسات والمعارك السياسية، مثل الحجاب، ومصير خريجي مدارس الأئمة والخطباء الدينية، ثم إنه لا يمكن تجاهل أن الحزب خرج من رحم التيار الإسلامي التقليدي في تركيا ممثلاً في حزب الرفاه، ثم السعادة حاليًا ـ كما سبق أن ذكرنا.

والعلاقات بين الولايات المتحدة وحزب العدالة والتنمية تعود إلى عهد الرفاه في حقبة التسعينيات، وفي هذا الإطار يقول الكاتب السياسي التركي ناصوحي جوجنور:

إن الكثيرين من الكُتّاب والمؤرخين والسفراء والبيروقراطيين الأمريكيين بدءوا يشيرون إلى اسم واحد لقيادة الإصلاحيين الإسلاميين في تركيا هو أردوغان؛ حيث اعتبروه شخصية معاصرة، وبإمكانه قيادة تركيا منذ أن كان رئيسًا لبلدية إسطنبول في الفترة ما بين عامي ١٩٩٤ و ١٩٩٨، وأن الولايات المتحدة كانت قد تنبهت إلى صعود نجم أردوغان منذ الثمانينيات في إطار اهتمامها الكبير بتركيا ومستقبلها السياسي عندما كانت تعتبرها خط الدفاع الأول ضد الاتحاد السوفيتي والشيوعية في منطقتي جنوب أوروبا والشرق الأوسط. ويشير جوجنور إلى أن العلاقات الحقيقية بدأت بلقاء بين أردوغان والسفير الأمريكي الأسبق مورتن أيرام أوينز في أواخر الثمانينيات عندما كان أردوغان رئيسًا لفرع الرفاه في منطقة «بيه أوغلو» في إسطنبول، ثم زار أوينز أردوغان مرارًا عندما أصبح رئيسًا لبلدية إسطنبول، حيث نقل له رسائل إيجابية من واشنطن، وكانت الزيارات تستغرق ساعات عدة، وتتم من خلال مترجم لعدم إجادة أردوغان أية لغة أخرى غير التركية، وحسب الكاتب فإن جوهر الرسائل التي تلقاها أردوغان هو: «أنت مهم لمستقبل تركيا في الأعوام المقبلة»، ولتجنب الحرج فإن أردوغان كان يردد أن اللقاءات والرسائل هي باسم الحزب، ومن بعدها ظهرت ادعاءات بأن أردوغان هو ولي عهد نجم الدين إربكان أبي الأحزاب الإسلامية التركية ذي التوجهات المحافظة.

ويضيف جوجنور أنه بعد ذيوع أمر الاتصالات بين أردوغان وواشنطن بدأ الصراع يتفجر بين الأستاذ وتلميذه، وأخذ أردوغان يستعد لقيادة الإصلاحيين في الرفاه، بعد أن اتضح لهم بعد تجربة الانقلاب الأبيض الذي نفذه الجيش ضد إربكان في ٢٨ فبراير ١٩٩٨ أنه لا مستقبل في تركيا للأحزاب الإسلامية التي تطالب بتطبيق الشريعة الإسلامية، وتحاول أسلمة كل مظاهر الحياة، ليس فقط بسبب موقف الجيش الذي يعتبر نفسه حارسًا أبديًا للمبادئ العلمانية للجمهورية حسبما أطلقها مؤسسها الزعيم مصطفى كمال أتاتورك في حقبة العشرينيات من القرن الماضي، ولكن لأن النظام العالمي الجديد الذي بدأ يظهر بعد انهيار الاتحاد السوفيتى عام ١٩٩١ والذي تقوده الولايات المتحدة لن يسمح بتحول تركيا إلى «إيران أخرى».

ويتابع جوجنور قائلاً: إن الخطوة التالية لأردوغان كانت عقد لقاءات مع زعماء الأحزاب السياسية للتشاور بشأن الحركة الإصلاحية، وقبل حوالي عام تقريبا من

تأسيس الحزب زار أردوغان الولايات المتحدة، والتقى الشيخ فتح الله جولن زعيم الطريقة النورسية الذي يعيش في المنفى، وكان معارضًا لإربكان وسياساته التي قادت إلى إبعاده من السلطة بعد تحالف مع تانسو تشيللر زعيمة حزب الطريق القويم، وقد حصل أردوغان على دعم وسائل الإعلام التي يمتلكها جولن، وتشمل صحيفة «زمان» واسعة الانتشار و«القناة الثامنة».

ووفقًا لرأي جوجنور فإن واشنطن رأت منذ البداية أردوغان قريبًا منها، ورغم أن خطوطه العريضة وأفكاره لا تتسق تمامًا مع مصالحها، لكن هو الأفضل لفكرة التصالح بين الإسلام السياسي والديمقراطية.

ويقول الكاتب: إن تشكيل حزب العدالة والتنمية تم في إطار توافق إرادات متعددة، منها مؤسسوه، بالإضافة إلى بعض الأجنحة في الجيش من الچنرالات غير الراغبين في استمرار الصدام السياسي مع التيار الإسلامي المعطل للتقدم، والعائق أمام تحقيق الاستمرار، بالإضافة إلى الإدارة الأمريكية، وأطراف أخرى أقل تأثيراً مثل بريطانيا وإسرائيل.

وعندما حقق حزب العدالة والتنمية انتصاره الكبير في الانتخابات البرلمانية التي جرت في الثاني من نوڤمبر عام ٢٠٠٢ وحصل على ما يقرب من ثلثي مقاعد البرلمان التركي البالغ عددها ٥٥٠ مقعداً، استقبلت واشنطن الحدث التاريخي بترحاب كبير، وأبدى ديپلوماسيوها في أنقرة تفاؤلاً كبيراً بهذه النتائج، واعتبرت واشنطن أن الشعب التركي أزاح النخبة السياسية التقليدية وأتى بأخرى جديدة بعيدة عن الاتهامات بالفساد، كما نظر للحزب الحاكم الجديد على أنه الحل الوسط بين الإسلام والديمقراطية، وبالقطع كانت واشنطن تضع عينها على ما يمكن أن يقدمه الحزب وحكومته في الحرب على العراق التي كانت واشنطن قد أطلقت إشارات التمهيد لها في تركيا بالزيارة التي قام بها أحد مهندسيها الكبار وهو پول وولفويتز إليها في يونيو عام ٢٠٠٢، حيث كان الرجل الثاني في الپنتاجون آنذاك، وقد أعطى أردوغان إشارات واضحة لواشنطن بدعمها في الحرب، وتقديم التسهيلات العسكرية اللازمة لها بعد أن أبدى الجيش التركي موافقته على ذلك في أواخر ٢٠٠٢ وأوائل ٢٠٠٣، وعلى هذا الأساس استقبل الرئيس الأمريكي چورچ ووكر بوش أردوغان في مكتبه

البيضاوي في البيت الأبيض في ديسمبر عام ٢٠٠٢ رغم أنه لم يكن يحمل أي منصب رسمي بعد حرمانه من الترشح لعضوية البرلمان بسبب سجنه في قضية سياسية اتهم فيها بالتحريض على النظام العلماني عام ١٩٩٩، وقد كان رئيس الوزراء آنذاك عبد الله جول الرجل الثاني في الحزب ورفيق أردوغان في الكفاح السياسي، وزاد بوش على ذلك بالاتصال بالزعماء الأوروبيين خلال قمتهم في بروكسل في نهاية ديسمبر عام ٢٠٠٢ لحثهم على منح تركيا موعداً لبدء انضمامها للاتحاد الأوروبي، وهو ما لم يثمر لكنه كان رسالة صداقة أخرى من بوش لأردوغان، وخلال الأسابيع التي سبقت بدء الحرب الأمريكية على العراق، بدا أن تركيا قد قبلت مبدأ السماح لعشرات الآلاف من الجنود الأمريكيين باستخدام أراضيها في غزو العراق، وأنها تساوم واشنطن من أجل الحصول على أكبر ثمن مادي ممكن.

غير أن تصويت البرلمان التركي ضد مشروع قرار بالسماح لهذه القوات بالمرور في الأراضي التركية لغزو العراق، وانضمام حوالي ١٠٠ عضو من الحزب الحاكم إلى المعارضة في هذا الموقف قد أصاب واشنطن بمرارة لا زالت في الحلوق حتى الآن، رغم أن أردوغان نفسه أيد بقوة الانضمام لواشنطن في الحرب، لكن الجناح المحافظ في الحزب بزعامة رئيس البرلمان بولنت أرنج عاد إلى جذوره الإسلامية بتبني الرفض، ومن المثير أن إربكان قد بعث إلى نواب حزب العدالة ـ والكثير منهم كان من أتباعه في الرفاه ـ برسائل على أجهزة الهاتف المحمول تحذرهم من العقاب الإلهي إذا قبلوا ما وصفه «بدعم الكفار في قتال المسلمين»، وأخذت واشنطن على أردوغان عدم ممارسته الضغوط الكافية على النواب لتمرير ما تريده، غير أن الرجل كان يدرك حساسية الوضع، خاصة أن الرأي العام في تركيا كله كان معبأ ضد الولايات المتحدة.

والملفت أن أردوغان حاول الاستفادة من قرار البرلمان بإظهار مزايا الممارسة الديمقراطية، وعدم تجاهل رغبات الشعب، والحق أن الرجل ـ كما سبق أن أشرنا ـ لديه قدرة هائلة على القفز بين المواقف المتناقضة بدرجة تذهل من معه ومن ضده في آن واحد، حسب آراء بعض المراقبين.

ومن الواضح أن موقف الأول من مارس الفاصل قد جعل واشنطن تعيد النظر في فكرة النموذج، خاصة أن العلاقات مرت بمراحل توتر حتى زيارة أردوغان لواشنطن

في مايو ٢٠٠٥، حيث ثبت لواشنطن أن أردوغان وحزبه يسايران قاعدتهما الشعبية الإسلامية المحافظة عند اللزوم، ويضحيان بفكرتي النموذج والصداقة لها، ظهر هذا في موجة الهجوم الشعبي والإعلامي على واشنطن بعد بدء الحرب على العراق، ونفس الشيء بالنسبة للعلاقات مع إسرائيل شهدت نفس المنحنى؛ حيث كال أردوغان الانتقادات لها بسبب الاعتداءات على الشعب الفلسطيني، خاصة وصفه إياها بتبني إرهاب الدولة بعد اغتيال زعيمي حماس الدكتور عبد العزيز الرنتيسي والشيخ أحمد ياسين في عام ٢٠٠٤، لكنه أعطى أشارت مغايرة للطرفين أيضًا بقبول المشاركة في مشروع الشرق الأوسط الموسع المحوري بالنسبة لبوش، وتحويل تركيا إلى مركز للمؤتمرات واللقاءات الرامية لإغواء العرب والمسلمين بقبول هذا المشروع، ولعب دور عملي تركي في تنفيذه، فضلاً عن التقارب مع إسرائيل تفاديًا لأزمة ذات ثمن فادح يتمثل في انقلاب اللوبي اليهودي الموالي لها في الولايات المتحدة عليه.

ومما يستلفت الانتباه أن واشنطن ترسل من آن لآخر رسائل تهديد لأردوغان وحكومته كلما ترى أنه تمادى في دغدغة المشاعر الشعبية المعادية لها في تركيا، وقد ظهرت كتابات لكتاب وصحفيين أمريكيين ينتمون للمحافظين الجدد تتهجم على أردوغان وحزبه، مثل كتابات الباحث السياسي مايكل روبن صاحب مقال «الأموال الخضراء.. السياسة الإسلامية في تركيا» الذي نشر في مجلة ميدل إيست كوارترلي في مطلع عام ٢٠٠٥ واتهم فيه حكومة أردوغان باستخدام أموال إسلاميين متشددين من دول الخليج في إنعاش الاقتصاد التركي، وبتبني ممارسات إسلامية لا تعبر عن التوجهات الديمقراطية المعلنة للحزب، ولم يشأ روبن أن يمضي عام ٢٠٠٥ إلا بهجوم جديد على حكومة أردوغان وحزبه في مجلة «ناشونال ريڤيو» مرددًا نفس الأفكار عن تطرف الحزب، وضرب مثالاً باتجاه الإدارات المحلية المنتمية له لفرض قيود على تعاطي المشروبات الكحولية، وحث روبن فى مقاله الأخير الوسط السياسي في واشنطن على مواجهة أية محاولة لانتهاك القانون والدستور في تركيا، مشيرًا إلى تزايد ممارسات الفساد في صفوف حكومة أردوغان.

وتقول الكاتبة التركية عائشة كرابات: إن واشنطن تريد تسييس الإسلام لصالحها، وقد تعاملت مع حزب العدالة والتنمية في هذا السياق، بمعنى أنها تبحث عن

الإسـلاميين الأقل راديكاليـة، وهي عندمـا طالبت بمنع حـمـاس من المشـاركة في الانتخابات الفلسطينية على سبيل المثال فإنها كانت تريد الضغط عليـها لكي تصبح حركة سلمية، وتتخلى عن الطابع الراديكالي، وترى كرابات أن حزب العدالة والتنمية لا يصلح نموذجًا للأحزاب الإسلامية في العالم الإسلامي كما تريد واشنطن؛ لأن تركيا دولة علمانية، ومن هنا نلحظ أن الحزب ضم ليبراليين ويمينيين لكي يبعد عنه شبهة الإسلامية.

وتخلص كرابات إلى القول أن واشنطن حاولت جعل هذا الحزب نموذجًا، لكنها فجعت في بعض مواقفه، مثل قرار الأول من مارس ٢٠٠٣ وهم يدركون الآن الوجوه الأخرى للعبة السياسية الداخلية والخارجية، وهم لم يكونوا مدركين أن الحزب يضم تيارات متباينة.

وفي كل الأحوال يبدو أن اللعبة ستستمر بين واشنطن وحزب العدالة والتنمية؛ حيث أصبح الطرفان يحفظان قواعدها جيدًا، وهي تتم في منطقة ما بين الصداقة المخلصة والعداء الدفين!!

***

obeikandl.com